يوم الحسين عبرة (١)

بقلم : الاستاذ عبد الحسين الراضي

لقد ناجتني نفسي من أعماقها ، وقرارة ايمانها ، وهزتني هواجسها المضنية الى طريق ناصع أثره ، محمود سالكه ، دفعتني وهي شائقة غير مرغمة ، لتأدية الواجب الذي يتحتم على كل مسلم شاعر بسمو هذه الذكرى المجيدة ولا يستطيع الكاتب أن يخوض في بحر متلاطم تياره متراكم زخاره ويستكشف أسرار هذه النهضة المباركة في مثل هذه العجالة ، كما أن الاقلام لا تستطيع أن تسمو فتصف تلك الشخصية الخالدة ـ شخصية الحسين الثائر ـ فقد كتب عنها فلاسفة وادباء ولكنهم سيظلون يجدون فيها لغزاً يائسون حله . ولو أردنا أن نحصي الآن ماتوحيه هذه الشخصية لكان لنا من ذلك أسفاراً . فقد أوحت لنا دروساً لم تقتصر على الاسلام فقط ، بل يصح لنا القول بان الانسانية بأسرها قد أحست أثر ذلك الثائر العادل ، وما زالت تحسه الى زماننا هذا احساسا عميقا راسخ المنبت ، فيجدر بنا والحالة هذه ان نتخذ من هذه الذكرى تقديساً للدين الذي كانت في سبيله ، وتمجيداً للمبدأ الذي قامت عليه ، لانها يوم ينشر النور والجلال في نفوسنا .

إن الحسين (ع) يريد منا أن نهتدي بهديه ، ونسير على ضوء نهجه ، فاذا كانت النفوس لا تنتفع بسمو مقاصده ولا تستمد من معين سيرته ، نبراسا يضيء لها طريقها في معترك الحياة ، فليست من الذكرى بشيء ، لان الامم تتسابق اليوم الى ايجاد أنصع الطرق واقومها ، ابناء حضارتها ، على الوجه الاكمل ، لتحتل مكانها في موكب الامم الراقية ، فتسير في تهادي ركابها ، قد اعتدلت رعشاتها ، وسكنت اضطرابات روحها ، باستقرار ذاتها وسمو مبدئها ، ولا تجد امة من الامم حاضرة كانت أم غابرة الا وكانت مدينة للامة الاسلامية ، بدين « ٢ » تراكمت أنواعه ، فرغبت اليه الشعوب ، مستمدة منه تراثها وذلك لأنهم درسوا حوادثنا دراسة تحليلية فاستعانوا بها على نيل كامل حضارتهم وسمو مكانتهم ، فمن هذه الحوادث ، حادثة الطف الكبرى ، فلو استمدت من وحيها نفوسنا ، كما ترقرقت خشوعا لها دموعنا ، لغذت نفوسنا بمبادئها الرائعة ، المتألقة ، الوضيئة .

ففيها الوفاء في أروع مظاهره ، والفداء في أبهى صوره ، والصبر في أكمل معانيه ، والايثار في انبل مواضعه ، كما لنا فيها مثال للآباء ، وانه لمثال يتألق حقاً في شخصية الحسين الشهيد (ع) .

لقد ضلت الانسانية عن ربها وعبدت المال والقوة وفي سبيلها نسي كل شيء ، من دين ، أو فضيلة ، أو مبدأ والشيطان قد فعل فعله في النفوس الضالة ، والاحقاد قد بلغت الغاية في القلوب الغلف . في خلافة يزيد بن معاوية ولكن الحسين في وسط هذه اللجة الثائرة ، المائجة بالآراء المتباينة ، ثار طالباً حقاً قد غدر ، ودينا قد اندثر ، لقد كان عليه واجب يؤديه كاملا غير منقوص ، لأنه إمام منوط برسالة الهية ، لم تكن ترمي في الواقع الا الى اصلاح حال المسلمين ، واجتماع كلمتهم ، وتوحيد اهدافهم على ضوء تعاليمها المقدسة . إلا أن يزيد بن معاوية لا يرتضي للحسين (ع) هذا الأمر ، بل دعاه الى مبايعته ، والانصراف عن خطته ولما كان الحسين يمتاز بسمو عقيدته وإبائه الذي بلغ به الى ذروة الاخلاص ، ولما لم تبق بارقة تسطع من رؤى الآمال ، هاجر من الحجاز الى العراق لبث الدعوة اليه ، واستفزاز شعور المسلمين واستنهاضهم فخرج بأهله ملازما الطريق العام ، مخافة ان يقال انه خرج خائفاً فلقد قال له بعض اهل بيته : لو تنكبت الطريق يا سيدنا ومولانا ، لكان خير لك ، خوفا من أن يلحقك الطلب . فقال : والله لا افارقه حتى يقضي الله ما هو قاض . فسار سيراً حثيثا ، حتى لقيه الحرّ فكلمه قائلا : اذكرك الله في نفسك ، فاني اشهد لئن قاتلت لتقتلن ، فأبت نفس الحسين الزكية ان تظهر عجزاً او كلالا بل كانت قدوة حسنة تتمثل بها المثل الانسانية العليا . أجابة مستهوناً الموت فأنشد :

[١] عِبرة . بكسر العين

[٢] بفتح الدال واحد الديون .

سأمضي وما بالموت عار على الفتى اذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما
اقدم نفسي لا اريد بقاءها لتلقى خميساً في الوغى وعرمرما
فان عشت لم اندم وان مت لم ألم كفى بك ذلا ان تعيش فترغما

ليس شأني شأن من يخاف الموت ، ما أهون الموت علي ، في سبيل العز واحياء الحق ، ليس الموت في سبيل العز إلا حياة خالدة ، وليست الحياة مع الذل إلا الموت الذي لا حياة معه .

ولقد صدق عليه السلام فلما احاطت به جيوش الضلال ، وطلبت اليه التسليم الى حكم العدو ، أبى ان يعطي يداً لمبايعة يزيد بن معاوية صاحب الطنابير والقيان واللاعب بالقرود والكلاب تخلف اباه (ع) في كلمات خالدات سجلتها الايام على صفحات التأريخ بمداد من نور :

(هيهات منا الذلة يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون ، وجدود طابت ، وحجور طهرت ، وانوف حمية ، ونفوس أبية ، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه ، فلا ارى الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الا برما) .

ونفس تعاف الضيم حتى كأنه
هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر (١)

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر تردي ثياب الموت حمرا فما دجى لها الليل الا وهي من سندس خضر

اما الايثار فينطق في شخصية العباس المناضلة :

لقد فعلت جيوش الضلال كل قطيعة ونكث . فمنعت الماء عن الحسين وآله في اليوم الثامن من المحرم فاشتد العطش بالحسين وأهله في اليوم العاشر وما يخفى ما للعطش من أثر في ضعف قوة الحسين واعوانه . فانتدبوا العباس بن علي (ع) لانه كان يلقب بالساقي ، فاخذ معه قربا ، وتوجه نحو المشرعة ، وكانت محاطة بسياج من عسكر الامويين ، اذ لم يستطع احد الوصول اليها ، الا انه تمكن بقوته وشجاعته من ان يقتحم تلك الصفوف ويصل الى نهر الفرات ليملأ آنيته ويرتوي من مائه العذب ، فملأ يده ماء ليشرب تذكر الحسين وآله ، فرمى به الى النهر ايثاراً منه ، لعطش الحسين واطفاله (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) فالصدق من ايثار ، وما انبله من خلق

وتتجلى العقيدة الثابتة وكو المبدأ في اصحاب الحسين عليه السلام . ولعل في تسابقهم الى الموت دونه خير دليل على صحة ما نقول .

أما الصبر والشجاعة فهما عنصران متمان كانا دعامتا النصر الخالد ، فقد تروضوا عليهما منذ الحداثة فمنعاهم عن التقهقر في مواطن الخوف ، وعن الذعر في مواطن الخطر وذلك دفاعا عن حق ، وحماية لمصلحة . ووقاية لعرض وشرف . وهذا الخلق من دعائم الاسلام ومن أخص الصفات التي يجب ان يتخلق بها المسلم ، واذا اردنا ان نعزو نجاح الاسلام ، وظهور أمره وثبوت دعائمه ، وجب ان يكون الصبر والشجاعة هما العاملان لذلك . فلا غرابة اذن حينما تسمع بصبر وصمود اصحاب الحسين الابرار امام جيش قاهر . إذ ليس الصبر الممدوح ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والتعب . ولكن ان يكون للنفس غلوباً وللخطوب حمولا ، ولجأشة عند الحفاظ مرتبطاً . بهذا الصبر ، وبتلك الروح المؤمنة ، المطمئنة لامر ربها ، الراضية بقضائه وقدره . صمدوا ، وضحوا بانفسهم في ميدان النصر والسعادة . فطوبى لهم ، وخير مقام .

***

وبعد فقد قهرت حقيقة الحق رياء الباطل ، وانطلق بمقتل الحسين (ع) نور سماوي يوقد من روح النبوة وجلالها ، وعصمة الامامة وتعاليمها . فبدد سحب الضلال وطوى عهد الشيطان ، فانهارت اركانه ، وعفت مراسمه لان الباطل الى اضمحلال وان كانت له صولة ، فيا ايها المسلمون استلهموا من ذكرى الحسين معانيه الحية : معاني العزة القومية ، ومعاني القوة والاباء ، والصبر عند البلاء .

هذا ما يلهمه علينا حديث الطف ، فانه لعبرة !!

إن كنت في لغة الحياة وركبها
يوما فكن يا ابن الخلود عهودا

القرنة — عبد الحسين الراضي

(١) قالها ابو تمام بن حميد الطائي . وقد لقيت في بحثنا محلا للاستشهاد .